ابن خفاجة الاندلسي والنقد الأدبي

أ.د. منجد مصطفى بهجت

قسم اللغة العربية

الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

تمهيد :

لا يحتاج شاعر مثل ابن خفاجة إلى أن يعرّف به ، وبجلال قدره في ميدان الشعر ، فهو يوشك أن يكون عنواناً كبيراً للشعر الأندلسي ، في أبرز ملامحه وأجلى مظاهره ، وكان شعره متداولاً وذائعاً على امتداد العصور الأدبية ، حتى يومنا هذا[١] ، « كان رأس مدرسة في الشعر لها انصارها المعجبون بها وخصومها الناعون عليها »[٢] ، وشاعريته هي التي جعلت ابن قزمان (ت ٥٥٥ هـ) يعزف عن الشعر الفصيح ويتحول عنه إلى الزّجل بعد أن رأى نفسه تقصر عن شعر ابن خفاجة وغيره[٣] . وقد قيض لدراسة اشعاره وتحقيقها عدد من الباحثين[٤] .

وأبو اسحاق إبراهيم بن أبي الفتح ، المتوفى سنة ٥٣٣ هـ عاش عصري ملوك الطوائف والمرابطين ، ويعد أولهما أزهى عصور الأندلس الأدبية تألقا ، والثاني كان امتداداً لسابقه في الحياة الأدبية والثقافية ، عرف بأنه من ذوي المواهب المزدوجة ، حيث استطاع أن يبدع في مضماري الشعر والنثر ولم تعن الدراسات بالوقوف عند نصوصه النثرية التي بلغت ثلاثة وأربعين نصا ، من الرسائل ذات المكانة والبراعة ، على ما قيل من أن جانبيهما متنافر ، وفي الأندلس نبغ شعراء كتاب ، أو كتّاب شعراء ، ولعل ابرزهم ابن شهيد وابن زيدون وابن برد الأصغر وابن الأبار وابن الخطيب .

لم يكن نصيب النقد الأدبي أقل شأنا من الأدب ، في عصر ابن خفاجة ، فقد عرفت الأندلس ثلاثة من كبار نقادها هم ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) ، والفتح بن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) وابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ)[٥] ، والكلاعي (ت

٥٥٠هـ) ، وإذا كان ابن بسام صاحب موقف نقدي شامل ، كما يرى الدكتور إحسان عباس ، فإن ابن خفاجة عنده ، أوضح الشعراء مذهبا في النقد[٦] .

لقد حظيت شاعريته بعناية الباحثين فأفردت فيه دراسات ورسائل جامعية[٧] ، وبحوث ضمن دراسات الأدب الأندلسي عامة حيث كان مقروناً بأبرز شعراء الأندلس بأمثال ابن زيدون والمعتمد بن عباد وابن الخطيب .

تعني هذه الدراسة بالوقوف عند جانب لم تتلبث لديه الدراسات الحديثة[٨] ذلكم هو القيم النقدية التي اعرب عنها الشاعر في ديوانه ، وتتجلى هذه القيم في مواطن مختلفة ، أهمها خطبة الديوان التي كشف الشاعر فيها عن منهجه في الشعر ، ومعاييره في المفاضلة بين الاشعار ، وقيماء نقدية أخرى ستتضح عما قريب ، وفيها يرسم الخطوط العريضة لحياته الفنية ، منذ بدأ يعالج الشعر حتى شرع في جمع ديوانه[٩] ، وعلى الرغم من قلة هذه الصفحات فإن قيمتها النقدية لا تقل عن قيمة الآراء التي قدمها عدد من نقاد الأندلسي ، وقد رأى أحد الباحثين انها تمثل تجربته الأدبية الشخصية[١٠] ، لكننا نرى أنها تتسع لتجربته وتجارب الآخرين .

لم يكن ابن خفاجة بدعا بين شعراء العربية - منذ أقدم عصورها - الذين مارسوا النقد وخاضوا مشكلاته ، فقد عرفه الشعر العربي قبل الإسلام وكان لشعرائه دور بارز في مجال النقد وامتد ذلك في عصور الأدب الأخرى « وقيل مرة للبحتري : أمسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : أبو نواس لأنه يتصرف في كل طريق ، ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه ، فقيل له إن أحمد بن يحيى ثعلبا لا يوافقك على هذا . فقال : ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه لأنه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقة »[١١] « فقد كان هؤلاء الشعراء النقاد أقدر من غيرهم على فهم القيمة الحقيقية للشعر »[١٢] .

ويمكننا أن نعكس الصورة كذلك ، حين نؤكد أهمية النقد للشاعر بعد أن رأينا أهمية أن يكون الناقد شاعرا ، ولذلك أطلقوا تسمية (الخنذيذ) على الشاعر « الذي يجمع إلى جودة الشعر رواية الجيد من شعر غيره » . « وسئل رؤبة عن الفحل من الشعراء فقال : هو الراوية يريد أنه إذا روى استفحل » ولذا كان أهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب « فإنه قد يميز الشعر من لا يقوله كالبزاز يميز من الثياب ما لم ينسجه »[١٣] . وعرفت الأندلس عدداً من الشعراء النقاد أمثال ابن

شهيد وابن حزم وحازم القرطاجني (ت ٦٤٨هـ) وابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) .

ويتفق النقد الغربي كذلك على أهمية دور الشاعر في ممارسة النقد ، فقد قال أرسطو « أنك لا تستطيع أن تكون حاكما عاد لا على شيء لا تستطيع أنت نفسك أن تقوم به . وكتب بن جونسون « الحكم على الشعراء ليس إلا ملكة الشعراء »[١٤] .

وتلي مقدمة الشاعر لديوانه ، مقدماته لقصائده التي نظمت نثراً أدبياً رائعاً كما انطوت على بعض الملامح النقدية ، ويمكن أن تكون أشعار الشاعر مصدراً ثالثاً للمادة النقدية عنده فيما صحّت تسميته بالنقد المنظوم ، وسنستعرض القضايا النقدية عند الشاعر حسب ورودها في خطبة الديوان أو مقدمته[١٥] .

- ١ -

مكونات الشاعر وثقافته :

وأول قضية نقدية تناولها في خطبة الديوان بعد ديباجة التحميد والصلاة والتسليم على الرسول عليه الصلاة والسلام تتعلق بمكونات الشاعر وثقافته ، فقد الهم قول الشعر في سن مبكرة « والشباب يرف غضارةً ويخف بي غَرارةً »[١٦] ، وعملية الإبداع لا تقترن بسن معينة للإنسان ، ولكن توزيعها يكون مركزاً في سن مبكرة نسبياً ، كما تشير إلى ذلك الدراسات الحديثة[١٧] .

ويصارحنا بأسماء الشعراء الذين تصفح أشعارهم وحذا حذوهم وأخذ مأخذهم ، الرضي ومهيار الديلمي وعبد المحسن الصوري ، فتملكه من محاسن أشعارهم الرائعة ، وألفاظهم الشائقة ما ينسجم مع برد الشباب فمال إليهم ميلا شديداً وصار يروم التشبه بهم ، فهل عنى حقاً ما يقول ؟ وإلى أي مدى استحوذ هذا الاعجاب على الشاعر ؟ لقد تمكن هؤلاء الثلاثة من الشاعر تمكنا كبيراً بعد أن نالوا نصيبا من اعجابه ونجد في الديوان اشارات واضحة إلى ذلك فتابع الصوري متشبها به ، محتذيا طريقته في تسع مقطعات وقصائد[١٨] ، وأشار إلى متابعته الشريف الرضي في قطعة واحدة[١٩] ، ومهيار الديلمي في قصيدتين[٢٠] . كذلك صرح في موضوع تال باحتذائه المتنبي[٢١]

في لف الغزل بالحماسة في أربع مقطعات وراق له في موضع آخر النظر إلى بيت المتنبي فاحتذاه معارضا [٢٢] ، ونلاحظه يسلك مسلك ابن الرومي في موضوع ذم الورد [٢٣] ، في مقطعة من بيتين ، وهو في ذلك مواكب لأثر أبيات ابن الرومي التي تركت صدى بعيداً لدى شعراء الأندلس ، وعكس هذا الصدى الحميري ، في كتابه البديع [٢٤] ويصرح في أشعاره بأنه يتخذ كبار الشعراء ، ومشهور الأدباء مثلا أعلى له فيقول [٢٥] في مقام الثناء على شعر القاضي ابن اسحاق بن ميمون :

بما حزته من شريف النظـام وارهفته من حواشي الكلام
فعج « تتصفح » بديع البديع وتلمح سلامة شعر السلامي

مشيراً إلى بديع الزمان الهمداني (ت ٣٩٨هـ) صاحب المقامات ، ومحمد بن عبد الله السلامي (ت٣٩٣هـ) [٢٦] .

وفي موضع آخر يخاطب أحد أصدقائه في رويّة ملتزماً ما لا يلزم مستهلا أبياته بقوله :

بَرَعت فرعَتَ فمن ذا حَبيبٌ له الويل أم من أبو الطيّب ؟

وبغداد موطن كبار الشعراء ، ولذلك فكأن قصيدته صادرة عنها لا عن شقر موطنه [٢٧] :

نشأت وشُقْرٌ دارها وكأنما وردتك زائرةً من الزوراء

ويرى الدكتور إحسان عباس أن ابن خفاجة انفرد في تأثره بالصوري في بناء القصيدة على الجناس الناقص ، وإنه أول شاعر أندلسي يقتفي خطوات الرضي والديلمي في الاشارات إلى الأماكن النجدية والحجازية وأول من أدرك منهم طريقة المتنبي في لف الغزل بالحماسة [٢٨] .

ولم تقتصر ثقافة الشاعر الشعرية على هولاء النفر الثلاثة ، إذ نجد في ثنايا الديوان والرسائل مضمنات لأشعار عدد من شعراء العرب ، أمثال قيس بن الخطيم ، ويزيد بن الطثرية ، ومجنون ليلى ، وابن الدمينة ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، والفرزدق وآخرين [٢٩] ، وله معارضات لعدد من الشعراء منهم ابن صارة الأندلسي ، وابن الصائغ ، وابن رشيق [٣٠] .

ومما يستدل على ثقافة الشاعر الناقد عنايته بصياغة أشعاره وتهذيبه لها في آخر حياته ونظمه مجموعة من المقطعات على لزوم ما لا يلزم ، في ثمانية عشر نصاً فيما أحصيناه في الديوان .

- ٢ -

مفهوم الشعر ومكانة الشاعر :

يأتي حد الشعر عند ابن خفاجة ، غير مختلف في كثير عن حده عند قدامة بن جعفر (ت٣٧٧هـ) يقول : « والشعر يأتلف من معنى ولفظ وعروض وحروف روى » وهي الاركان الأربعة التي أشار إليها النقاد ، مع اختلاف في الألفاظ فقط ، ويعقب ابن خفاجة أن تعذر جزء من هذه الأجزاء أو أكثر يخرج الكلام من النظم إلى النثر . . « حتى ينتظم بحسب المأمول ، أو ينشأ ناقص ماء الحسن والقبول »[٣١] ، وهو إذ يقرر حقيقة تعاشق هذه العناصر الأربعة وتماسكها لصياغة الشعر ، يعلله بطريقة غير مباشرة بسبب تنوع الأسلوب لديه في الديوان بين شعر ونثر ، إذ لم يكن النثر عنده أقل شأنا ومكانة من الشعر . . ورسائله في جودتها من ناحية وكثرتها ، تنبئ عن جمعه بين الملكتين اللتين تحدث النقاد عن تعذر اجتماعهما لدى الأديب الواحد[٣٢] ، فكان إذا خانته ملكة الشعر تحول عنها إلى النثر . . دون أن يتكلف قول الشعر ويهدر قيمته .

وكان ابن خفاجة برع في مزجه بين الشعر والنثر . فتارة يتأخر وأخرى يتقدم ، ويتصل المزج لديه على نحو ما نجد أنه يبدأ الكلام نثراً وينتقل إلى الشعر ويعود ثانية إلى النثر ثم يعود إلى الشعر ، وبعدها إلى النثر وهكذا حتى يكون قد قدم أربع مقطعات شعرية وخمس قطع نثرية في الموضوع ذاته[٣٣] .

والشاعر في هذا فنانٌ ينتقل بين فنين رئيسيين من فنون الكلام « تعلقاً بدر من النثر يساق خلال النظم . . ولعل ذلك أبسط للنفس وأنشط ، وأذهب مع الأنس وأهذب »[٣٤] . لاسيما أنه يستخدم هذا الأسلوب في رسائله إلى أصدقائه ، وإذا كان الجاحظ سيد هذه الطريقة في التأليف والتصنيف ، فإن هذه المزاوجة لم تتحقق عند

الاندلسيين كما تحققت عند ابن خفاجة لأن أرباب النثر والنظم في الأندلس أمثال ابن زيدون ، وابن دراج ، وابن اللبانة ، وابن برد الأصغر وغيرهم مارسوا الضربين منفصلين ، ولم يجمعوا بينهما في مقام واحد إلا قليلا . ولا نشك أن للبعد الجمالي والذوقي أثرهما في هذه الطريقة ، وهي التي جعلته يبقى قصائد الديوان غير مرتبة على القوافي ، ووعد بذلك إلا أنه لم يحققه على الرغم من أنه عاش بعد تنقيحه الديوان حوالي ثمانية عشر عاماً[٣٥] ، وفي تقديري أن الأمر لم يتحقق له لاختلاف المنهجين ، ولأنه اقتنع بأهمية عدم فصل الشعر عن النثر ، فبقى الديوان على ما هو عليه ونظر ابن خفاجة للعمل الإبداعي من زاوية أخرى تتعلق بدرجة الشعر جودة أو رداءة ، ويقرر حقيقة مصيبة في التفاوت الموجود بين شعر الشاعر الواحد « والشعر وإن اهبتل به ليس يخلو جيده من سقط ، وانقسام إلى طرفين ووسط »[٣٦] ويعلل لذلك أن الشاعر في مطلع حياته وتدفق ملكته غيره حين تتقدم به التجربة « فان الاذهان بآخرةٍ تكل »[٣٧] . وقد فهم الدكتور إحسان عباس من العبارة . أن كلال الشاعر يظهر في خاتمة القصيدة[٣٨] .

ويرى الدكتور مصطفى عليان[٣٩] أن تفاوت المستوى الفني في شعر الشاعر ناجم عن تنقيحه وتهذيبه لشعره ، ولكنه في حقيقة ما يقرره ابن خفاجة لا علاقة له بالتنقيح . . بل ربما أدى ذلك إلى تعدد روايات أشعاره بسبب انتشار تلك الأشعار قبل أن يأتي عليها نظر ابن خفاجة . .

ويشير ابن خفاجة إلى مذهبه في الشعر - من حيث الموضوع - وأنه لم ينتجع به كما لا يستنيل ، وإنما يصطنع ويستميل ، اكتفاء بما في يدي من عطايا منان ، وعوارف جواد وهاب[٤٠] « فاغناه عن تبذل وانتجاع »[٤١] وعلى الرغم من أن الديوان يتضمن عدداً من القصائد في مدح عدد من ملوك المرابطين ، فإن الشاعر كان عفيفا مترفعا عن التكسب بشعره يقول ابن خفاجة : « ولكن بين جنبي قلباً همته ما همته ، فهو يرى الصبر أيمن رفيق يصحبه ، والقناعة اكرم ذيل يسحبه ، وعلام يبتذل الوجه مصون مائه ، ويلقى عنه قناع حيائه وإنما الدنيا - رئيس الطمع - سحابة صيف عن قريب تقشع »[٤٢] ، على الرغم من أن إبراهيم بن يوسف بن تاشفين « رفع فأسنى واصطنع فأدنى » إلا أن الواضح الجلي أن وفادة ابن خفاجة عليه ، كانت منوطة باعجابه بأمراء المرابطين ودورهم العظيم المعروف لدى دارس التاريخ الأندلسي ، حيث استطاعوا

أن يعيدوا الأمن إلى ربوع بلنسية مدينة الشاعر بعد أن سقطت سنة ٤٨٧هـ ، وانتهبت ثم احرقت فيما بعد ، قبل أن تغادرها جيوش الأسبان سنة ٤٩٥هـ ويؤرخ ابن خفاجة لليد البيضاء التي اسدتها الجيوش المرابطية عليه ، بقصيدته اللامية ولا تتجاوز مدائحه لأمراء المرابطين ثمانيا (بنسبة ٢٪ من مجموع شعره) .

وفي تقسيم ثالث للشعر يتمثله بشعره ، يأتي على ضرب مرتجل بديهي وآخر منقح حولي ، وفكرة تنقيح الشعراء لأشعارهم قديمة في الشعر العربي[٤٣] . وما يقرره ابن خفاجة يتعلق بأشعاره ، إذ حظيت بعنايته مرتين مرة حين نظمها ، وثانية حين ارتقت بالشاعر السن عبّر عن ذلك بقوله « متقدما كان سابقا ، أو تالياً لاحقا »[٤٤] .

وتوخى أن يجعله في مجلد بعد أن باد كثير منه لدثور رقاع مسوداته وإخلاق حواشي تعليقاته .

وكانت عملية التنقيح والتثقيف شاملة . لأن الشعر عنده « صناعة »[٤٥] وبذلك تحقق في ديوانه الانتخاب والانتقاء على الرغم من أن هذا الأمر لا يتضح - بشكل واضح - إلا في الدواوين (الغيرية) وبها يتحقق الاتجاه المنهجي في النقد ، حيث يستقل الناقد في انتخابه[٤٦] ، ويأخذ هذا التنقيح منهجا واضحاً لدى الشاعر بأبعاد ثلاثة ، اثبات بعضه على ما هو عليه ، حذف قسم آخر ، إصلاح قسم ثالث « منه ما تعهدته فقيدته ، ومنه ما لحظته فلفظته ، ومنه ما تصفحته فأصلحته »[٤٧] وإن هذا الإصلاح لم يكن عابراً سطحياً بل كان جوهريا أتى على حذف أبيات ، وتغيير في الصيغة في بعض آخر[٤٨] ويصّرح بان هذه الإصلاحات والتغييرات انتظمت الديوان ، وبعضها يتعلق بالمضمون على نحو ما سيتبين لنا حين نقف عند فكرة التخييل لدى الشاعر ، من ذلك قوله : « ومما قاله في الشبيبة ثم غيره مع الكهولة »[٤٩] .

ومما يؤكد مذهبه الحولي هذا ، أنه عني بضرب آخر يحتاج إلى العناية والأناة هو شعر اللزوميات في عدد من قصائد الديوان[٥٠] كذلك احتفاله بمعارضات عدد من الشعراء[٥١] .

ولا نشك أن نظرة الشاعر تختلف عن رأي من رأى في أن مرتبة الشعر أدنى من النثر وأنه يذهب المروءة والمكانة على نحو (ما يقول عصري الشاعر ابن بسام في الذخيرة « لم أرضه مركباً ولا اتخذته مكسباً ، ولا ألفته مثوى ولا متقلبا ، إنما زرته لما ما ، ولمحته تهمما لا اهتماما ، رغبة بعز نفسي عن ذله ، . . ومالي وله . . وإنما

أكثره خدعة محتال ، وخلعة مختال .. جده تمويه وتخييل ، وهزله تدلية وتضليل ، وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم .. » ونسي ابن بسام أن حكمه هذا ينسحب على الكتاب الذي بذل شطراً من حياته في تأليفه إلا إذا كان عمله خاصا بالقليل المتبقي من جليل المنثور والمنظوم ، بعكس ابن خفاجة الذي اعتقد أن الشعر « من خلال الجلية . وحيلة النبلاء العلية »[٥٢] وغاية النظم عنده ، أنه مخدوم لديه خلاعة (أي هواية) ، وقد كلف بالعناية به صناعة »[٥٣] .

- ٣ -

دواعي الشعر وتاراته :

تناول ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) دواعي قول الشعر وأوقاته وتاراته في مقدمته النفيسة لكتابه - الشعر والشعراء فقال : « وللشعر دواع منها ، الطبع ، والشوق ، والشرب ، والطرب والغضب »[٥٤] وذكر أن للشعراء وسائل مختلفة يستدعون بها الشعر .. ثم قال : « وللشعر أوقات يسرع فيها أتيه ويسمح فيها أبيه ، منها أول الليل قبل تغشي الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغذاء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة في الحبس والمسيرة ، ولهذه العلل تختلف اشعار الشاعر ووسائل الكاتب »[٥٥] .

ويرى الدكتور عبد الجبار المطلبي أن أكثر الشعراء لا يرون الشعر إلا في موضوعاته الملهمة ، فإن فنيت فني الشعر ، وجفت ينابيعه وما يأتي الشاعر بشعر إلا أن تكون أمور ملهمة ، وأعمال ناطقة يترجم عنها الشاعر ما يريد من قوافيه وأناشيده[٥٦] ، وأورد أمثلة كثيرة عن الشعراء وهم يفصحون عن لحظات الالهام ودوافع القول[٥٧] .

أما عن تاراته فيقول ابن قتيبة « وللشعر تارات يبعد فيها قربه ويستصعب فيها ريضه ، وكذلك الكلام المنثور .. ولا يعرف لذلك سبب إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم »[٥٨] فما الأوقات التي رآها ابن

خفاجة مناسبة للنظم فاسلس القياد لشعره .. واتقدت بها قريحته ؟

لقد عشق ابن خفاجة الأدب في غضارة شبابه ، وقرأ عيون الشعر العربي لفحول الشعراء على نحو ما اشرنا في حديثنا عن مكونات الشاعر وثقافته وأقبل على الشعر بكليته يروّقه ويرويه ولم تلبث به هذه الحال طويلا إذ حصل ما كدر خاطره ، واخمد قريحته الشعرية ، باضطراب أحوال بلنسية خاصة والأندلس عامة ، فقد سقطت كبرى مدن الأندلس طليطلة سنة ٤٧٨هـ وسقطت بلنسية بعد محاصرتها عشرين شهراً سنة ٤٨٧هـ ، وإذا كانت ولادة ابن خفاجة سنة ٤٥٠هـ فيكون ما قاله من عزوفه عن نظم الشعر ، وهو في السابعة والثلاثين « ولما انصدع ليل الشباب عن فجره ، ورغب المشيب بنا عن هجره ، نزلت مركبا وتبدلت به مذهبا ، فأضربت عنه برهة من الزمان طويلة ، اضراب راغب عنه زاهد فيه[٥٩] .

فكم استمر اجباله عن قول الشعر ؟ لم يحدد ذلك وكلمة « برهة » في المعجم تعني الزمان الطويل[٦٠] ، وهل رجاحة عقله وكبر سنه سبب حقيقي في إضرابه عن قول الشعر ؟ الراجع أن الأوضاع التي حلت بمدينته (بلنسية) هي التي نغصت عليه وجعلته يذهل عن قول الشعر ، إذ لا نجد له أشعاراً في رثاء مدينته بعد أن استباحها الأسبان سوى أربعة أبيات قالها بعد حرقها سنة ٤٩٥هـ ونكبة عنيفة مثل هذه النكبة يحتمل أن تجعل الشاعر يعزف ويضرب عن قول الشعر[٦١] ، في حالة الدهشة والذهول .

وغير معقول أن كبر السن هو السبب الحقيقي .. لأننا نجده بعد نحو عشر سنوات يعود ثانية إلى قرض الشعر ، كما يعود إلى تنقيح الديوان وجمعه على نحو ما أسلفنا القول فيه ، ونرجح أن تكون سنة ٤٩٥هـ التي استعاد فيها المرابطون بلنسية من الأسبان بقيادة أبي محمد عبد الله بن مزدلي ، ولكن حمدان حجاجي يرى أن ذلك كان سنة ٥٠٠هـ حيث ولى على الأندلس علي بن يوسف بن تاشفين بعد وفاة أبيه[٦٢] ، وقد عبر عن ذلك فقال : « ولما دخل جزيرة أندلس ، الأمير الاجل أبو اسحاق إبراهيم ، ابن أمير المسلمين ، تعين أن افد عليه مهنياً بالولاية مسلما ، واغشى بساطه الرفيع موفيا .. فعطفت هنالك على نظم القوافي عناني ، وسننتها عند ذلك حُللا على معاطف سلطاني .. »[٦٣] وكانت ولايته على مرسيه سنة ٥٠٨هـ .

وقد مس النقاد الأندلسيون في تعليقاتهم النقدية معطيات مهمة .. شملت

المؤثرات العامة فيه ، وعلاقة التجربة بالذات المبدعة ، وأبانوا عن العوامل التي ينبغي أن يراعيها في خلق التأثير الضروري لعمله[٦٤] . فابن بسام يدرك أن الانفعال وحدته ، إنما يتجلى ويزداد كلما اشتدت الصلة بين النفس ، ومصدر الانفعال وذلك في تحليله لقطاع من شعر ابن عمار أيام محنته[٦٥] .

ولو نظرنا في جملة ما نظمه ابن خفاجة من حيث ابعاد تجاربه الشعرية فإن تعليقاته عليها في مقدمات قصائده ، نجد فيها استجلاء واضحا للعوامل المؤثرة في اشعاره ، فقد تقدم بنا عزوفة من المديح التكسبي وأن ما نظمه من مديح كان مقترنا باعجاب واجلال لممدوحيه من أمراء الأندلس ، أما الوزراء الذين مدحهم فقد اعرب عن صلاته الحميمة بهم ، ووضح اجواء تلك المخاطبات وظروفها ، فهم اترابه ولداته ، منهم ابن أبي الخصال ، وأبو الحسن بن إبراهيم ، وأبو أمية إبراهيم بن عصام[٦٦] .

ونقف عند إضاءة للشاعر بطبيعة العلاقة بينه وبين الأمير أبي بكر بن الحاج في قوله : « واخلق بها من دعوة هتكت حجاب الظلماء ، وقرعت باب السماء ، إن تثبت هنالك مع المجرة سطرا ، وتكتب في ديوان القبول صدرا ، فإنها عن قلب كرم في مشايعتك سيرة ، وخلص من جهتك عقيدة وسريرة ، حتى لست ادري اضمير أم ماء نمير ، وهل من محيد عن هوى أروع وحيد ... إلخ[٦٧] .

وحين توفي أبو محمد عبد الله بن ربيعة كتب أول القصيدة « وكان قد جمعت بينهما ازمة الشباب ومحضر الكتاب ، وقراءة الحساب والآداب ، فكانا من الانتظام والالتحام ، بحيث لا يريان ينفصلان حتى اخترمته الوفاة[٦٨] ، وينص على ابعاد تجربته الشعورية حيث يردف قصيدته الهمزية في رثاء قاضي القضاة أبي أمية إبراهيم ابن عصام بما يكشف عن مدى صدق شعوره ومطابقته لوجدانه[٦٩] .

ولو انتقلنا إلى غرض آخر أصيل لدى الشاعر هو وصف الطبيعة ، يمثل مدى تمازج الموضوع بتكوين الشاعر ، وقد اثبت لنا ذلك في مواطن متعددة من الديوان فصل في بعضها واكتفى في بعض بالإشارة السريعة ، يحدثنا عن نفسه فيقول : « اكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة ، ونعت شجرة ، وجرية ماء ، ورئة طائر ، ما هو إلا لأنه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها . وجبلة ، وأما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره ، وحسبك من ماء سائح ، وطير صادح ، وبطاح عريضة ، وأرض اريضة فلم يعدم هنالك ، من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه ، ويحرك إلى

القول نفسه ، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر ، فصار قوله فيه عن كَلَف لا تكلّف ، مع اقتناع ، قام مقام اتساع . . [٧٠] .

والنص ذو دلالة لا تحتاج إلى مزيد تعليق ، ولا بأس أن نشير إلى قضية مكملة لمقام الطبيعة من نفسه أن الشاعر لم ينظر إلى الطبيعة نظرة عابرة ، ولم يستوقفه منها الجمال السطحي المتعلق باللون أو الصوت ، وإنما وجدناه في أكثر من موضع يتأمل في الطبيعة ، ويسبر أغوارها طالبا العبرة والاعتبار ، وهو ما يفسر نزعة صوفية انفرد بتسجيلها الضبي في ترجمته [٧١] ، وفي مواضع أخرى ، حين تحدث عن صفة طائر يقول « وتارة يرمي نحو السماء بطرفه كأنما له هنالك اعتبار » [٧٢] وحين نظم رائعته في وصف الجبل التي يجمع النقاد على أنها أفضل قصائده ، قدم لها بقوله « وقال في الاعتبار » [٧٣] .

وأما حين نظم قصيدته في مناجاة القمر ، فقد فصل أبعاد التجربة في مقدمتها ، وانتهى فيها إلى قوله « يعتبر » [٧٤] .

ويقول في إحدى رسائله إلى أبي اسحاق بن صواب « وإني كنت منذ ليال قد أرقت فتلددته انظر في اعقاب ما مضى من عمري فانقضى » [٧٥] ، وحين تدبر حالته في كبر سنه قال : « وحق لمن شاهد تضعضع أركانه . . . وإدبار عمره وزمانه ، أن يطرق هنالك فكرة ، ويملأ جفنيه عَبرة » [٧٦] .

- ٤ -

الصدق والكذب وعلاقته بالتخييل :

مزج ابن خفاجة في ديوانه بين جده وهزله ، والهزل يطلق على موضوعات الشعر التي تخرج عن حدود القيم الخلقية ، وتتجاوز الحشمة والوقار ، وقد اقتضاه ذلك أن يخوض في خطبة الديوان في قضية عرض لها نقاد العرب في دراساتهم وتلك هي قضية الصدق والكذب ، وقد أوضح أنه تعرض لنقد أقوام لم يحدد لنا طبقتهم ، كما لم يذكر اسماءهم ، أو يشر إلى بعضهم ، ولكننا نذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور مصطفى

عليان إلى أنهم من الفقهاء ، وأن موقفهم يمثل خصومة بين الأدباء والفقهاء ، وقد استعمل ابن خفاجة السلاح نفسه الذي شهره هؤلاء المنتقدون ، فقد كان نقدهم قائما على أساس إنكارهم عليه عددا من القصائد تمثل مرحلة الشباب ، جنح فيها الشاعر إلى ضرب من المجون ، فقال منتقصا منهم بأسلوب ينطوي على انفعال « ولم احتفل بنقد أقوام في مساليخ أنعام يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » ولا يعلمون مع ذلك أنه يستجاز في صناعة الشعر لا في صناعة النثر أن يقول القائل : أني فعلت وأني صنعت ، من غير أن يكون وراء ذلك حقيقة ، فان الشعر مأخذ وطريقة ، وإذا كان القصد فيه التخييل ، فليس القصد فيه الصدق ولا يعاب فيه الكذب »[٧٨] .

وواضح أنه يتهم المنتقدين بتهمة خلقية هي أشد من التهمة التي وجهوها إليه ، ثم يزعم أنهم لا شأن لهم بالشعر لأنهم ليسوا من أهله « إنما يتكلم فيه أهله ، ومن شأنه عقده وحله »[٧٩] لأنهم خلطوا في انتقادهم إياه ، بين حقيقة الشعر والقيم الخلقية ويتمثل في هذه القضية جملة أمور منها :

الارتباط المتكامل بين ذات الأديب ومجتمعه في غاية الأدب ووظيفته ، وهذا الارتباط عرف ، كما يرى الدكتور منصور عبد الرحمن ، في نقد صدر الإسلام ، وقد انبعثت على صورته في الأندلس في القرن الخامس الهجري[٨٠] .

كما يثير النص قضية نقدية شغلت النقاد قديما وحديثا حيث تناولوا قول حسان بن ثابت[٨١] :

وإن أصدق شعر أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وتروي مقولة لعمر بن عبد العزيز قالها للاحوص « قل ، ولا تقل إلا حقا » ولذلك يرى الأحوص في أبيات أن الشعر كلام يؤلفه منطق حق أو باطل ، وأنه وإن كان مصيبا صادقاً فعيبه كونه يبني بناء المنزل أي أنه من ابتداع الشاعر ولم يكن موجودا من قبل[٨٢] كما فسر ذلك الدكتور المطلبي من أبياته .

ولسنا بصدد تصنيف النقاد وفق الميزان الديني أو الخلقي الذي التزمه الشعراء في شعرهم إذ أن عددا منهم فصل بين الدين والشعر ، وقرروا أن اعذب الشعر أكذبه وقول البحتري : « في الشعر يغني عن صدق كذبه »[٨٣] وأن الدين بمعزل عن الشعر ، ومقولة ابن خفاجة تنطوي على هذا الرأي ، ومثله رأى لابن حزم الأندلسي ذكره في طوق الحمامة ، وقد قدم آراءه النقدية المتقدمة من زاوية دينية حين حدد موضوعات

الشعر ، كما حدد مجالاته ، إلا أنه أخفق في التوفيق بين النظرية والتطبيق ، يقول ابن حزم بعد أبيات يذكر فيها الخمرة « معاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعا ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقا ، وكساد الهمة لنا صفة ، ولكن حسبنا قوله تعالى : ومن أصدق من الله قيلا في الشعراء : { ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون } فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ[٨٤] ، عقب بهذا الكلام بعد أبيات(٨٥) استهلها بذكر الخمرة على طريقة أبي نواس . « والصدق من أكثر المصطلحات وضوحاً في كتاب ابن طباطبا ، لايدانيه في وضوحه وتكراره مصطلح آخر »[٨٥] .

وظاهرة الخصومة بينه وبين منتقديه من أبناء عصره انها تتركز في اشعاره المقولة في الغزل . . لكنها سلكت سبيلا أخرى ، إذ أنه لا يجد بأسا فيمن ينتقد وبوجه صحيح يعقل ، بل ينكر على من ينتقد لخبث سريرة ، وضعف بصيرة ، وخطوة في الادراك قصيرة[٨٦] ويقذفهم بتهم أخرى بين سوء طوية واعتقاد ، وتأخر في باب الانتقاد ، وأنه مزجي البضاعة في صناعة الشعر ، متكلف مسف أحس من نفسه بسفول الفهم وسفول القدم[٨٧] .

ويحرص ابن خفاجة على عدم التصريح بهؤلاء المنتقدين ، وربما ليخمل ذكرهم ، أو ليضرب الصفح عنهم ، متحليا بالخلق الرفيع ، كي لا يقع تحت طائلة الغيبة التي نهى عنها القرآن الكريم ، لكنه لا يلبث أن يظهر إعجابه بالوزير الكاتب أبي بكر بن عبد العزيز المرخي ، الذي أحسن نصفته ، وأكرم صفته ولم يتتبع لديه العثرات .

وبقي ابن خفاجة على حذر وتوجس من منتقديه حين يصور الشعر خلقا منافيا للقيم الدينية - غير مصر على ما فعل . « وإن كان مقولا بطريقة الفكاهة ، والنادرة والدعابة ، والشباب يومئذ بريعانه وسورة سلطانه »[٨٨] ويقول قبل أبيات أخرى « وانا استغفر الله منه وان لم يك إلا قولا »[٨٩] ولكن مثل هذا الكذب الفني ، لا ينطوي على فساد في نظم الشاعر ، حيث هو كاذب فيما ينظم على نحو ما يصرح بذلك ؟ ومن هذه الزاوية يدخل الموضوع مدخلا جديدا في قضية نقدية أخرى هي التخييل .

وأما التخييل فهو مصطلح كثير الدوران على السنة نقاد العرب ، جاء ثمرة للتأثر بالنقاد الفلاسفة حيث ورد عند الفارابي (ت ٣٣٩هـ) ، وابن سينا (ت ٤٢٨هـ) ، وعبد القاهر (ت ٤٧١هـ)[٩٠] ، وقد جلى أبعاده ، وكشف عن قيمته وتفاوت

الشعراء فيه ، حازم القرطاجني حيث جعل التخييل خاصة من خصائص الشعر يقابله الاقناع في صناعة الخطابة « واعتماد الصناعة الشعرية على تخييل الأشياء التي يعبر عنها . . » ولا يجد في التخييل بأساً لأن مقدماته تكون صادقة وتكون كاذبة وليس يعد شعراً من حيث هو صدق ولا من حيث هو كذب بل من حيث هو كلام مخيل[٩١] .

وعن مدى تمكن الخواطر من قوة على التشبه فيما لا يجرى على السجية بما جرى على السجية من ذلك ، فلا يماز المطبوع فيها من التطبع فإذا اتفق مع هذا حسن النظم تناصر الحسن في النظام والمنحى[٩٢] .

ويضرب مثلاً على تمكن طائفة من الشعراء من هذه الصفة ، لتوفير تلك القوة فيهم على كل حال ، الشريف ومهيار وابن خفاجة[٩٣] .

- ٥ -

الجزالة والرقة والمحافظة والتجديد :

وكان السهم الثاني الذي سدده نقاد عصره إليه متمثلاً في أنهم لم يستسيغوا « إلا أن يتجزل مدح أو تغزل ، وجد أو هزل . . . »[٩٤] . ويظهر ابن خفاجة برمه وضيقه بهذا النهج ، وشأنه ونزعته التجديد الذي سبقه إليه أساتذته من المشارقة أمثال الصوري والرضي ومهيار ، ومما نعى عليه وأنكر ، موقفه من الديار من ذكر « التلدد والتبلد »[٩٥] وهو خروج على أنماط الشعر التقليدية ، وكذلك مقدماته الروضية[٩٦] ، ومنهج المتنبي الذي يقوم على أساس لف الغزل بالحماسة[٩٧] .

والشاعر في هذا يعكس ، كما يرى إحسان عباس ، الصراع القائم بين طريقة العرب التي تقوم على الجزالة ، وطريقة المحدثين التي أصبحت محاكاة لشعر عبد المحسن والشريف ومهيار[٩٨] .

ودعوة ابن خفاجة مبنية على أساس أن لكل موضوع لغته الخاصة ، وهو لا يضرب عن الجزالة بل يجد أنها لا تنسجم مع الغزل وان الرقة أولى في اللغة في مقامها .

- ٦ -

ملاحظ نقدية أخرى :

ولا يخلو ديوان ابن خفاجة من ملاحظ نقدية أخرى نرى مناسباً الإشارة إليها .. فقد علل لسبب مجيء الرثاء بعد الغزل ثم مجيء المديح بعد الرثاء وذلك عقب قصيدة يائية يرثي فيها جملة من الأخوان ويمدح أبا العلاء بن زهر بقوله : « وأنه لما كان بين المادح والممدوح اشتراك في معنى الرثاء ، ولاجتماعهما في خلة بعض تلك الجلة افتتح الشعر بالرثاء على جهة المساهمة والتعزية ، ثم اردف بالمدح على نحو من التأنيس والتسلية[٩٩] .

كما علل ذكر اسماء الأماكن من صفة نجد أوقاع ، فإنما جاء بها على أنها خيالات تنصب ، ومثالات تضرب تدل على ما يجري مجراها .. يكفي بها دلالة عليها عبارة . ويستحسن ايماءة إليها وإشارة[١٠٠] ، يعني أنه اتخذها رمزا لا حقيقة ، للايماء إلى منازل يهواها ، واشخاص يوليهم ثقته وحبه[١٠١] ، ونجد دقة لديه في الضبط اللغوي في آخر قصيدة همزية نظمها وختمها بقوله :

فرغبت عن نور الصباح لزورةٍ اغري لها ببنفسج الظلماءِ

بعدها عقب بقوله : « نور الصباح في البيت من القطعة المهموزة ، ثبت فيها مفتوح النون ، وسيغير فينشد لا محالة مضموم النون فينقص رونق البيت[١٠٢] .

وآخر ما نتوقف عنده حكمان نقديان اصدرهما في شاعرين ، احدهما مشرقي كبير هو المتنبي ، والآخر مغربي ناقد هو ابن رشيق القيرواني ، يدلان على ترجح قيمة اللفظ لدى الشاعر على المعنى ، فضلاً عن نزعة النقد الموازن فيها .

أما كلامه في الأول[١٠٣] فجاء عقب قصيدة ميمية صرح بأنه نظر في بيتها :

فلويت اعناق المطي معرجاً ونزلت اعتنق الأراك مسلما

إلى قول أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه :

نزلنا عن الاكوار نمشي كرامةً لمن بانَ عنه أن نلم به ركبا

وقال : « وفي بيت المتنبي لفظة تغض من شرفه وهي لفظة (من) وهي هنا مستجفاة لا مستحلاة ، ولو أنه قال :

نزلنا عن الاكوار نمشي كرامةً لأهلية أن نغشى رسومهم ركبا

لجاء البيت اتم جلالة وجزالة ، ولكن أبا الطيب إنما كان يهتبل بالمعاني ولا يبالي بالألفاظ ، ولما كان بصدد اثبات براعته في الافادة من بيت المتنبي ، وازن بين لفظة المتنبي (بان) وبديلتها في بيته (رسومهم) فاللفظتان متساويتان هنا في الدلالة على أقواء المنزل .

ويعزو ابن خفاجة موقف بعض المنكرين عليه هذا الاجتهاد إلى أمرين ، أحدهما : نفسي عارض ، يمكن تجاوزه : « لاعتياده انشاء البيت حسب ما وقع ، حتى ألفته نفسه وطبعه ، واستساغه لسانه وسمعه »[١٠٤] والآخر : فطري ثابت لا حيلة فيه ، ولا مناص منه : « لجساوة في حسه وغباوة في نفسه »[١٠٥] .

ويعزز رأيه بدليل تفاوت الأساليب فيما بينها ، فإن قولك : « لقيت من ضرب زيداء » ينزل عن قولك : « لقيت ضارب زيدٍ » كل ذلك ينزل في النفس من مرتبة الجلالة ، لا عن المعنى .

ولا شك أن في كلام ابن خفاجة في الموازنة بين الجمل الثلاث ، ضرب من الاجتهاد في النظر بأساليب العرب ، وترجيحه لأسلوب دون غيره ، جاء على أساس ذوقي طبعي، وفي الأمثلة مراعاة لمقتضى الحال ، وقد يكون ثمة خروج على مقتضى الظاهر، دون أن يكون هدفه مماحكة المتنبي ، واثبات مرتبة رفيعة لنفسه ، حيث يختم كلامه بالقول معتذراً : « ربما حمل علينا حامل فقال : إن هذا رجل يتعاطي رتبة في الشعر فوق رتبة المتنبي ، وليس الأمر كذلك ، لأنه لم يعترضه في جملة شعره ، إنما اعترضه في لفظة ، وهذا ليس بمستنكر ولا بمستكبر » وتعقيبه يوحي بمكانة المتنبي وجلالة قدره في نفس ابن خفاجة ونقاد عصره . .

وأما نقد أبيات ابن رشيق[١٠٦] ، فقد ساق لنا أنه التقى أبا عمران بن أبي تليد ، فأنشد أثناء مؤانسته إياه أبيات ابن رشيق :

يا من يمرّ ولا تَمرّ به القلوب من الحرقْ
بعمامةٍ من خدّه أو صَدّه منها استرقْ
فكأنه وكأنها قَمَرٌ تعمم بالشَّفَقْ
فإذا بدا وإذا مشى وإذا رنا وإذا نطقْ
شَغَل الجوانح والجوا رح والخواطر والحَدَقْ

فأظهر اعجابه بحسن سياقه الاعداد .. لكن ابن خفاجة انكر على صاحبه ذلك الاعجاب فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير ، والبيت الذي قبله ، فينزل بازاء كل واحد منهما ما يلائمهما ثم نسج على ذلك المنوال متلافياً الخطأ عند الشاعر في أربعة أبيات فاستحسنها ابن أبي تليد .

- ٧ -

النقد المنظوم :

ستكون وقفتنا الأخيرة في استجلاء الوجه النقدي لشاعر الطبيعة ابن خفاجة عند ضرب يصح أن يطلق عليه اسم « النقد المنظوم » في الإلماحات النقدية التي ضمنها اشعاره ، وما كان يلمع إليه بين حين وآخر إلى خصائص شعره الجيدة ، وسمات البراعة فيها ، وقد اطلق احد الباحثين ، على ضرب مماثل تسمية « نقد الشعر بالشعر »[١٠٧] وقد فرغنا من بعضها حين الحديث عند مكونات الشاعر وثقافته ، وذلك لما ذكر المثل الأعلى من شعراء العرب .

لم يخصص أبن خفاجة قصيدة طويلة أو قصيرة في الموقف أو المذهب النقدي الذي يرجحه في الشعر كما لم يخلف منظومة في هذا الاتجاه كما فعل (هوراس) الروماني أو غيره من شعراء العرب وهو في ذلك يشبه إلى حد كبير ابن الرومي (ت٢٨٣هـ) ، وكان معجبا به ، وقد ضمن اشعاره بعض آرائه في شعراء عصره ، وقدم معاييره في هذا المجال ، وإذا كان أكثر شعر ابن الرومي المنظوم تعريفا بشعره وشاعريته لدى ممدوحيه ، ودفاعا عنهما في وجه خصومه ، ومنتقديه[١٠٨] ، فإن ما جاء في شعر ابن خفاجة كان في خطاب ممدوحيه واصدقائه .

من القضايا التي عرض لها النقد القديم ، سيرورة الشعر ، وانتشاره في الآفاق ، وذكروا في ذلك أسباباً كثيرة ، منها جودة الشعر وبراعته ، ورقة الشعر ولطافته[١٠٩] ونجد إشارة إلى هذين الأمرين في قول ابن خفاجة[١١٠] :

فطار بذكري ما شئت ... كلام إذا ما طرى أطربا
كلامٌ يجد بلب الفتى ... ذهابا إذا شاء أن يلعبا

تحّملَ ما شاء من رقـــه فحيني عن المشرق المغربا

وفي موضع آخر يقول[١١١] :

وإليكها غراء لولا حسنها لم تفتق الأبصار والاسماع
عبقت بها في كل كفٍ زهرةٌ فتقت لها من حسنها أقماع

ومن أسباب سيرورة الشعر كذلك ، الحكمة والمثل[١١٢] ، حين تشتمل عليهما الابيات فتكسبها القيمة وتصبح كالحجارة الكريمة ، فهي عقيان وياقوت ومرجان ، ويعلل سبب ذيوعها[١١٣] :

بأمثالها من حكمة في بلاغةٍ تحلل أظغان وترحل أظعان

ويعرض في أشعاره إلى قضية الطبع والصنعة ، ويؤكد أن فيها ما يستحسن من الصفتين فيقول[١١٤] :

تدفق ماء الطبع فيه تدفقاً فجاء كما يصفو على النار عقيان
وتأخذ عنه صنعة السحر بابل وتلوي إليه أخدع الصب بغدان

ويقول كذلك[١١٥] :

تحمل ما شاء من رقة فحيى عن المشرق المغربا
وكاد بما فيه من بلة يسوم الصحيفة أن تعشبا

ويصف الطبع الذي يعد عنصرا مهما من عناصر الشاعرية ، بل يتصدرها ، بأنه سلسل دفاق ، وأنه « من افرند له رقراق »[١١٦] ، والافرند ، السيف وجوهره ووشيه ، ويكتب قصيدة إلى صديق له يجعلها « تسيل ماء في الحسام صقيلاً ويجعل كل بيت متدفقاً بالطبع »[١١٧] :

من كلّ بيت لو تدفق طبعه ماءً لغصّ به الفضاء مسيلا

ويعرض لعملية الإبداع فيشير إلى أنها تتولد عن خاطر متوقد فيقول[١١٨] :

متولد عن خاطرٍ متوقدٍ لهبا وطبع سلسلٍ دفّاقِ

ويطلق على هذا الضرب في النقد الحديث « الإبداع اليقظ الشعور »[١١٩] .

وقد تقدم الحديث عن موضوع الصدق والكذب في تجربة ابن خفاجة وعلاقتهما بالتخييل ، وما صرح به في مقدمة ديوانه ولكننا في هذا المقام نقف على أبيات تدل دلالة صريحة على مدى تفاعله بالتجربة الفنية ، ودور العاطفة في هذا المجال[١٢٠] .

واليكها فاهنأ بها من مدحةٍ أهديتها نـوراً إليك منـورا
وسواي يكذِبُ في سواها مدحةً فارغب لسمعك عن حديث يفترق

والقصيدة الصادقة بعضٌ من صاحبها ، لأنها ثمرة تجربة زاخرة بالعاطفة[١٢١] :

وقد نديت حتى لم أدر أرقعةً أنمق أم دمعاً أرقرق جاريا

بل إنه يستمد لها نوراً من بصره[١٢٢] :

ما خط من غرر الحسان وضاءة حتى استمد لها من الأحداقِ

كذلك تقدم رأي ابن خفاجة في الجزالة والرقة ، ما ساد من آراء النقاد في عصره ، وهما مرتبطان باللفظ والمعنى ، وفي اشعاره إشارة أخرى إلى أنهما يتساويان تارة ، ويترجح اللفظ منهما تارة أخرى ، فيقول[١٢٣] :

فلله قولي ما أهذبا ولله لفظي ما أعذبا

وفيه تعميم ثم تخصيص ، فيقول من أخرى[١٢٤] :

مغري بأغراضٍ تهول براعةً ورفيف الفاظ تشوق رقاق

ويمزج بين اللفظ والمعنى حين يستخدم كلمتين جامعتين هما النظام والكلام[١٢٥] :

بما حزته من شريف النظام وأرهفته من حواشي الكلام

والمعنى الحر واللفظ الرائق هما مناط الإبداع يقول[١٢٦] :

مبتدع حسناً فمن معنى له حرٍ ولفظ به رواق

وابن خفاجة في مساواته بين اللفظ والمعنى يشبه إلى حد كبير ناقدا أندلسياً

عاصره هو ابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) الذي قرن بينهما في مواضع كثيرة من ذخيرته[١٢٧] .

وقد مضى معنا اهتبال الشاعر باللفظ ، وعنايته به حين وقف ناقداً أبيات المتنبي ، وابن رشيق ، واقترح سبيلا لتقويم شعرهما ، وفي الشعر المنظوم ما يؤكد هذه الوجهة يقول[١٢٨] :

أفرغت من كأسي على اكبادهم قطراً له اسماعهم اقماع

وينسب لفظة « الحرية » إلى الكلام جملة فيقول[١٢٩] :

وإليك من حرّ الكلام عقيلةً قصرت خطاها خجلة العذراء

ويمكن أن يفهم من حر الكلام ، ذلك البعيد عن الابتذال والسوقية ، ويعزز هذا الوصف التالي بانها عقيلة ، أي أنها كالسيدة المخدرة ، ذات المكانة الرفيعة .

وحول خصائص الأسلوب ، وأهمية البديع فيه ، كان رائده الهمذاني حيث يقول[١٣٠] :

فعج تتصفح بديع البديع وتلمح سلامة شعر السلامي

ومن المراسم التي كان يترسمها في شعره « السجع » وهو من ضروب البديع[١٣١] فيقول :

هززتُ لها عطفَ القضيب وربما سجعت أبث الشكر سجعَ الحمائم

ويطلق اللفظة مجازاً ليريد بها الشعر[١٣٢] .

وسبقت الإشارة التي تأثره بالصوري في الجناس الناقص ، خلال الحديث عن مكوناته وثقافته ، وعنايته بالبديع تنسجم مع عناية الاندلسيين عموما به ، منهم مواطنه وعصريه ابن بسام الشنتريني فقد رأى أن أنواع البديع ذي المحاسن قيم الاشعار وقوامها ، وبه يعد تفاضلها وتباينها[١٣٣] .

وبعد فقد غذونا السير مع شاعر الطبيعة في مربع النقد ومصطافه ، واستجلينا أبرز المعالم النقدية التي امتاز بها واتسم ، واستمددنا هذه التوسمات ، والمؤشرات من ثلاثة مصادر هي : خطبة الديوان ، والنصوص النثرية التي جاءت فيه ، وأشعاره التي اختصها بهذا الأمر ، وقد اتسق الحديث في تمهيد وسبع فقرات ، عرض التمهيد لاسباب

اختيار الموضوع ، ومنهج الدراسة ، واعتمدت الفقرات الست من البحث على المصدرين الأولين ، في مادتهما النقدية ، وكانت : مكونات الشاعر وثقافته ، ومفهوم الشعر ومكانة الشاعر ، ودواعي الشعر وتاراته ، والصدق والكذب وعلاقتهما بالتخييل ، والجزالة والرقة والمحافظة والتجديد ، ثم ملاحظ نقدية تتعلق بشكل القصيدة وبنائها ، وملحظ لغوي ، وحكم على شاعرين .

أما الفقرة السابعة فاعتمدت على المصدر الثالث ، وتناولت النقد المنظوم عند الشاعر . توقفنا عند معظم الأبيات الشعرية التي جاءت فيها ملامح نقدية بالدراسة والاستنباط .

فعسى أن نكون قد وفينا الشاعر حقه في الكشف عن الجانب النقدي لديه ، واماطة اللثام عن زاوية لم توف حقها من الدراسة والبحث .

ومن الله التوفيق ، وهو يهدي إلى سواء السبيل . .

الهوامش

(١) احصى محقق الديوان التلاميذ والمريدين الذين أخذوا عنه الديوان تقييداً بعد أن جمعه هو ، فبلغوا عشرين ، من (انحاء الاندلس المختلفة) .

(٢) مقدمة محقق الديوان ص ٥ .

(٣) المغرب ١/١٠٠ .

(٤) قام بتحقيق الديوان تحقيقا علميا نفيساً ، الدكتور سيد مصطفى غازي ، معتمدا على الأصول المخطوطة ومنها نسخة كتبت في حياة الشاعر ، بحيث جاء عمله أفضل تحقيقات الديوان ونشرته منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٦٠ ، وقد اعتمدناه في هذه الدراسة .

(٥) تفرقت آراء ابن حزم في رسائله ، واما آراء ابن خاقان فقد جاءت في كتابه مطمح الانفس وقلائد العقيان ، وأما آراء ابن بسام ففي الذخيرة ، وينظر نقد النص الشعري بين ابن حزم وابن بسام ، مجلة دراسات اندلسية ، العدد ٥ ، تونس ١٩٩٠ .

(٦) تاريخ الأدب الاندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ص ١٠٥ .

(٧) منها رسالة الدكتوراه ابن خفاجة الاندلسي حياته وشعره ، علي محمد سلامة ، جامعة الازهر ١٩٧٧ ، ودراسة حمدان حجاجي ، حياة وآثار الشاعر الاندلسي ابن خفاجة ، وكان محقق الديوان قد وعد بان يفرد الشاعر بدراسة تصدر بكتاب مستقل (مقدمة الديوان ص ٢٧) .

(٨) نستثني من ذلك دراستين الأولى للدكتور احسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ص ١٠٥ - ١٠٦ ، والثانية للدكتور مصطفى الزباخ ، فنون النثر الادبي الاندلسي ص ٩٧ - ١٠٦ .

(٩) مقدمة محقق الديوان ص ٧ .

(١٠) فنون النثر الادبي ص ٩٧ .

(١١) الكشف عن مساوىء المتنبي ص ٣٢ .

(١٢) قضايا الشعر في النقد العربي ص ١٥٨ .

(*) كفاية الطالب ص ٤٤ .

(١٣) العمدة ١/١١٧ ، معجم النقد العربي القديم ٢/٣٩٠ .

(١٤) قضايا في النقد الأدبي ، ك . ك - رثفن ، ترجمة د. عبد الجبار المطلبي ، ص ٤٠٨ .

(١٥) الشعراء نقادا ص ١٩ - ٣٩ .

(١٦) خطبة الديوان ص ٦ .

(١٧) الإبداع العام والخاص ١٤٩ .

(١٨) تنظر الصفحات (١٢ - ١٣ ، ٦٧ ، ١٢٥ ، ١٩٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨) .

(١٩) ديوانه ص ١٤ .

(٢٠) ديوانه ١٤ ، ١٥ .

(٢١) ديوانه ١٦ ، ١٨ .

(٢٢) ديوانه ٢٨٣ .

(٢٣) ديوانه رقم ٦٣ .

(٢٤) البديع في وصف الربيع ٧٤ - ٨٠ .

(٢٥) ديوانه ص ٢٤٦ .

(٢٦) جمع شعره صبيح رديف ، ط١ الإيمان - بغداد ، ١٩٧١ .

(٢٧) ديوانه ص ٢٧ .

(٢٨) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ، ص ٢٠٧ .

(٢٩) الديوان ص ٦ ، ٢٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٣٦ .

(٣٠) الديوان ص ١٠٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٦ .

(٣١) ديوانه ص ٩ ، وينظر نقد الشعر ص ١٥ .

(٣٢) البيان والتبيين ٢٤٣/١ احكام صنعة الكلام ٣٩ وينظر الأدب الأندلسي ١٧٣.

(٣٣) ديوانه رقم ٢٣٩ ، وكذلك تنظر رقم ١٦ .

(٣٤) خطبة الديوان ١٠ .

(٣٥) مقدمة المحقق ١١ ، خطبة الشاعر ١١ .

(٣٦) خطبة الديوان : ٩ .

(٣٧) نفس المراجع السابق .

(٣٨) تاريخ الأدب الأندلسي ١٠٥ .

(٣٩) تيارات النقد ، ص ٥٢٥ .

(٤٠) خطبة الديوان ٨ .

(٤١) ديوانه ص ٢٩٠ .

(٤٢) ديوانه رقم ٢٥٨ .

(٤٣) ينظر ما كتبه د. عبد الجبار المطلبي عن تهذيب الشعر ، الشعراء نقادا ، ص ٢٩ - ٣٥ .

(٤٤) خطبة الديوان ١١ .

(٤٥) خطبة الديوان ٦ ، وهي اللفظة التي استخدمها ابن سلام في طبقاته ٥/١ وقدامة بن جعفر في نقد الشعر ص ١٦ .

(٤٦) تيارات ٥٢٥ ، والصواب ألا تعرف « غير » ولعل عبارة « دواوين الآخرين » أصح في هذا المقام .

(٤٧) خطبة الديوان ٩ .

(٤٨) نفس المرجع السابق .

(٤٩) ديوانه رقم ٦٥ .

(٥٠) تنظر ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣٤ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٤١ ، ٥٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٥٢ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ .

(٥١) تنظر ص ٥٢ ، ٢٩٢ ، ٣٠٦ .

(٥٢) خطبة الديوان ٦ .

(٥٣) نفس المرجع السابق .

(٥٤) الشعر والشعراء ٨١:١ ، وينظر معجم النقد العربي ٢٥١/١ .

(٥٥) الشعر والشعراء ٨٠/١ وينظر معجم النقد العربي ٢٩٩/١ .

(٥٦) الشعراء نقادراً : ٢٣ .

(٥٧) الشعراء نقادا ١٥٨ - ١٦٠ .

(٥٨) الشعر والشعراء ٨٠/١ - ٨١ ، معجم النقد العربي ٢٨٦/١ .

(٥٩) مقدمة الديوان : ٧ .

(٦٠) القاموس المحيط (بره) وجاءت الكلمة عند ابن خفاجة موصوفة بـ «طويلة» .

(٦١) ديوانه رقم ٢٨٥ ، وتنظر مناقشة سبب خلو دواوين الشعراء من رثاء مدن الأندلس ، الاتجاه الإسلامي ص ٣٣٦ - ٣٣٩ .

(٦٢) حياة وآثار الشاعر : ٩٥ .

(٦٣) مقدمة الديوان ٧ - ٨ .

(٦٤) تيارات النقد الأندلسي ٣٦٩ .

(٦٥) نفسه ٣٦٠ .

(٦٦) ديوانه رقم ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٣٥ .

(٦٧) ديوانه ص ١٨٨ .

(٦٨) ديوانه رقم ١٣٣ .

(٦٩) ديوانه ص ٢٧٦ .

(٧٠) ديوانه ص ٢٩٠ .

(٧١) بغية الملتمس رقم ٥٠٢ وينظر الاتجاه الإسلامي ص ٥٠٠ .

(٧٢) ديوانه رقم ٨ .

(٧٣) ديوانه رقم ١٦٤ .

(٧٤) ديوانه رقم ٨٠ .

(٧٥) ديوانه ٦٤ - ٦٥ .

(٧٦) ديوانه ٦٤ - ٦٥ .

(٧٧) ينظر في الموضوع : اسس النقد الأدبي ص ٤٢٤ .

(٧٨) خطبة الديوان ص ١٠ والآية من سورة النساء : ١٤٢ .

(٧٩) خطبة الديوان ص ١١ .

(٨٠) اتجاهات النقد في القرن الخامس الهجري ص ٢٥٤ نقلا عن تيارات النقد ص ٣٥٧ .

(٨١) معجم النقد الأدبي ٨٨/٢ وينسب البيت إلى طرفه وبقيلة الاشجعي (ينظر الشعراء نقاداً ص ٣٥) .

(٨٢) الشعراء نقاداً ٣٥ .

(٨٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس ٤٣٥ .

(٨٤) طوق الحمامة ١٠٥ ، والآية ٢٢٥ - ٢٢٦ من سورة الشعراء .

(٨٥) تيارات ص ٤٢٣ . مفهوم الشعر ، جابر عصفور ، ص ٦٣ .

(٨٦) خطبة الديوان ، ص ١١ .

(٨٧) نفسه ١٩ .

(٨٨) خطبة الديوان ، ص ١٣ .

(٨٩) نفسه ١٥٧ .

(٩٠) في الشعر ص ٢٥٧ وينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص٤٩٩ .

(٩١) منهاج البلغاء ، ص٦٣ .

(٩٢) نفسه ٣٤١ .

(٩٣) نفسه ٣٤٣ .

(٩٤) ديوانه ١١ .

(٩٥) نفسه ١٥ .

(٩٦) نفسه ١٦ .

(٩٧) نفسه ١٣ .

(٩٨) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص٤٩٩ .

(٩٩) ديوانه ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(١٠٠) نفسه ٢٠٤ .

(١٠١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ، ص ١١٦ .

(١٠٢) ديوانه ١٥٤ .

(١٠٣) نفسه ٢٨٣ .

(١٠٤) نفسه ٢٨٤ .

(١٠٥) نفسه ٢٨٤ .

(١٠٦) نفسه ٣٥٨ .

(١٠٧) ينظر بحث الدكتور يوسف حسين بكار ، ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر ، بحث مقدم لندوة « الشعر العربي قديمه وحديثه ، ١٧-١٩ آذار ١٩٩٠ ، كلية التربية ، جامعة الموصل .

(١٠٨) المصدر السابق ص ٤ .

(١٠٩) أبحاث في الشعر العربي ص ١٢١ - ١٢٢ .

(١١٠) ديوانه ق ٦٩ / ٢٥ - ٢٧ .

(١١١) ديوانه ق ٧١ / ١٣ - ١٤ .

(١١٢) ابحاث ص ١١٧ .

(١١٣) ديوانه ق ٥٣ / ٤ ، ٦ .

(١١٤) ديوانه ق ٥٣ / ٧ - ٩ .

(١١٥) ديوانه ق ٦٩ / ٢٧ - ٢٨ .

(١١٦) ديوانه ق ١١٩ / ٣٥ - ٣٦ وينظر القاموس المحيط مادة (فرند) .

(١١٧) ديوانه ق ١٥١/ ٣-٤ .

(١١٨) ديوانه ق ١١٩/ ٣٥ .

(١١٩) ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر ص ٦ .

(١٢٠) ديوانه ق ١٩٨/٢١ - ٢٣ .

(١٢١) ديوانه ق ١٥٠/٦١ .

(١٢٢) ديوانه ق ١١٩/٢٩ . وقد وقفت في إحدى رسائل الديوان ص ٣٣٠ ، أنه يرى «أن الطبع المهذب للوشي المذهب ، وأن لفظ بحر الفكر للجوهر اليكم» .

(١٢٣) ديوانه ق ٦٩/٢٩ .

(١٢٤) ديوانه ق ١١٩ / ٣٠ .

(١٢٥) ديوانه ق ١٨٦/١ .

(١٢٦) ديوانه ق ١١٩/٣٤ .

(١٢٧) الذخيرة ٢/١/٣٨١ .

(١٢٨) ديوانه ق ١٧١/٩ .

(١٢٩) ديوانه ق ٢١٥/٤٤ .

(١٣٠) ديوانه ق ١٨٦/١١ .

(١٣١) ديوانه ق ١٩٩/٤٨ .

(١٣٢) ديوانه رقم ٢٠٢/١٠ .

(١٣٣) الذخيرة ١/١/١٦ - ١٧ .

المصادر والمراجع

١- ابحاث في الشعر العربي ، د. يونس أحمد السامرائي ، ط. بيت الحكمة جامعة بغداد ، ١٩٨٩ .

٢- الإبداع العام والخاص ، الكمسندر روشكا ، ترجمة د. غسان عبد الحي أبو فخر ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٤٤ ، الكويت ١٩٨٩ .

٣- الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين د. منجد مصطفى بهجت ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦ .

٤- ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر ، د. يوسف حسين بكار ، بحث مقدم للندوة السنوية الثالثة ، نقد الشعر العربي قديمه وحديثه ١٧ - ١٩ آذار ١٩٩٠ ، كلية التربية - جامعة الموصل .

٥- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ، د. منصور عبد الرحمن ، ط. الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

٦- أحكام صنعة الكلام ، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي (ت ٥٥٠ هـ) تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٦ .

٧- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، د. منجد مصطفى بهجت ، ط. دار الكتب، الموصل ١٩٨٨ .

٨- أسس النقد الأدبي ، د. أحمد أحمد بدوي ، ط. دار النهضة ، مصر ، ١٩٧٩ .

٩- البديع في وصف الربيع ، أبو الوليد الحميري قريبا من ٤٤٠هـ تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، دار المدني ، جدة ، ١٩٨٧ .

١٠- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ، ابن عميرة الضبي (ت ٥٩٩هـ) دار الكتاب العربي، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١١- تيارات النقد الأندلسي ، مصطفى عليان ، ط. مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٤ .

١٢- حياة وآثار الشاعر ابن خفاجة ، حمدان حجاجي الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

١٣- ديوان ابن خفاجة الأندلسي (ت ٥٣٣ هـ) تحقيق د. سيد مصطفى غازي ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٠ .

١٤- الشعراء نقاداً ، د. عبد الجبار المطلبي ، ط١ ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨٦ .

١٥- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٣١ هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٦- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ) تحقيق محمود محمد شاكر ، ط. المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

١٧- حمامة في الألفة والآلاف ، ابن حزم الأندلسي ، تحقيق د. الطاهر أحمد مكي ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧ .

١٨- في الشعر ، أرسطو طاليس ، تحقيق د. شكري محمد عياد ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٩- قضايا الشعر في النقد العربي ، إبراهيم عبد الرحمن محمد ، ط. دار العودة ، بيروت ، ١٩٨١ .

٢٠- قضايا في النقد الأدبي ك . ك روثفس ، ترجمة د. عبد الجبار المطلبي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٩ .

٢١- الكشف عن مساوئ المتنبي ، الصاحب ابن عباد (ت ٣٨٥ هـ) ، مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٥ .

٢٢- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ، ضياء الدين بن الاثير ت ٦٣٧ - جامعة الموصل، ١٩٨٢ .

٢٣- معجم النقد العربي القديم ، د. أحمد مطلوب ، ط١ ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨٩ .

٢٤- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجي (ت ٦٨٤ هـ) ، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، تونس ، ١٩٦٦ .

٢٥- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) تحقيق كمال مصطفى الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٣.

٢٦- نقد النص الشعري بين ابن حزم وابن بسام الاندلسيين ، د. منجد مصطفى بهجت ، مجلة دراسات أندلسية ، العدد ٥ ، تونس ، ١٩٩٠م .